

الفصل الثاني

نمو العقل

النظرة الكلاسيكية

انسحاب الكلاسيكية

يجب أن ترتكز أية فلسفة للتربية على نظرة سليمة عن الإنسان وعن العالم . ويجب أن تتمشى هذه الفلسفة مع فهم واضح عن طبيعة المعرفة ومصادر الحق ، وأن تتفق مع نظرية أخلاقية صحيحة .

وتوجد فلسفة للتربية تلتزم بكل هذه الشروط وتعمل بها ، وسوف نطلق عليها اسم « النظرة الكلاسيكية » . غير أن هذه الفلسفة فشلت في أن ترضى المربي الأمريكي ، والشعب الأمريكي أيضاً . وقد أسست أكاديمية بنيامين فرانكلين عام ١٧٥٣ بفلسفة تغيّر الكلاسيكية ، كما أن ظهور نظام الاختيار في المواد الدراسية بجامعة هارفارد بعد قرن من إنشاء الأكاديمية ، كان بمثابة عدم الاعتراف بوجود ما يسمى بالقدر العام من المعرفة اللازم لكل المتعلمين .

ومع ذلك فقد استمرت الكلاسيكية مهيمنة على معظم المدارس خلال القرن التاسع عشر وبداية العشرين . ولكنها بدأت تفقد سطوتها في المدارس الابتدائية وكليات المعلمين عندما خلفتها الفلسفة البراجماتية في حوالي عام ١٩٣٠ . ونحرت المدارس الثانوية من الكلاسيكية في عام ١٩٥٠ عندما دخلت « المواد المهنية » ، في المناهج ، أو حلت مواد « التكيف الاجتماعي » ، محل مواد أخرى . بل إن بعض المدارس الثانوية أدخلت في برامجها « المواد المهنية » ، إلى جانب « مواد التكيف الاجتماعي » . واليوم

تجد الكلاسيكية نفسها معرضة لخطبات قوية في الجامعات ، ويقود الهجوم ضدها أصحاب المهن والمفكرون الذين يرون أن ينال طلبة الجامعة نوعاً من التعليم يساعدهم على الحياة في عالمهم الراهن ، لا في عالم من المثل . وكان هذا الهجوم الشديد هو الذى أجبر رجال العلم والفكر من أنصار الكلاسيكية إلى الإعتراف بضعف مركزهم ، وهو أيضاً الذى أثار النقاش الهائل حول معنى وأغراض وطرق التربية .

ولا توجد في الولايات المتحدة الأمريكية اليوم مدرسة أو معهد يتبع الفلسفة الكلاسيكية بحذافيرها . فقد انحرفت كل المدارس والكليات عنها بدرجات متفاوتة . وأقل درجات الانحراف والبعد عن الكلاسيكية نجدها في كليات الدراسات الحرة التى أنشئت منذ وقت مبكر ، وفي بعض المدارس (الإعدادية) الخاصة . وأكثر درجات الانحراف نجدها في كليات المعلمين الحكومية والخاصة على السواء . أما كل المدارس العامة فقد اتجهت إلى عكس الكلاسيكية .

ولكن الفلسفة الكلاسيكية لها محاسنها ولها مبادئ حية شابة لانستطيع أن نلقبها إلى العدم . وقد عرّف التقدميون هذه الفلسفة باسم «التقليدية» . والمدرسة المثالية في نظر الكلاسيكيين بعيدة كل البعد عن المدارس التى عهدناها في العصور الوسطى . المدرسة الكلاسيكية المثالية صيحة مدوية ضد المدارس التى وصفها شارل ديكنز في رواياته ، أو تلك التى عرف عنها الاهتمام الشديد بتحفيظ المعلومات دون فهمها ، والتى استخدمت العقاب البدنى الشديد في قسوته . إن الكلاسيكية تعارض مثل هذه المدارس ، وترى أنها نماذج لتعليم غير سليم ، لا فلسفة وراه .

أما التربية الكلاسيكية الحقة ، فهى وإن كانت تؤكد التدريب العقلى ، إلا أنها تعتبر الحكم الذاتى هدفاً نهائياً . ويقول الفيلسوف هيجل^(١) «يجب

(١) جورج ولهم فردريك هيجل فيلسوف ألماني (١٧٧٠-١٨٣١) .

على التربية أن تشجع نمو الذاتية والاستقلال . . ولكنه رأى أن المدارس يجب أن يسود فيها الهدوء والانتباه في ساعات المذاكرة والتحصيل : وأن يحترم التلاميذ بعضهم البعض وأن يحترموا مدرسيهم . وأن يؤدي التلاميذ الأعمال المنوطة بهم وأن يتحلوا بالطاعة ، ثم أضاف قائلاً :

« ... وما عدا ما يمارض مع نظام المدرسة ، فالتلاميذ أحرار في عملهم ... ولا مجال للعبودية في المدرسة ، فالتلاميذ ليسوا عبيداً ، ولا يجب أن يستعبدوا . وتطلب التربية ، التي تؤدي إلى الاستقلال ، أن يعود التلميذ بحاسبة نفسه ، وأن يستشعر حرية بين زملائه ومن هم أكبر منه سناً حتى يستطيع أن يقرر أى سلوك يسلكه . »

ولا تتطلب الكلاسيكية اهتماماً مبالغاً فيه بالمعلومات والحقائق ، ويقول هتشينس Hutchins : « إن هدف التربية ليس تعليم الحقائق والنظريات والقوانين ، وليس هدفها أن تسلى الأفراد أو تجعل منهم إخصائيين فنيين ، وإنما هدفها أن توسع آفاقهم وتثير عقولهم وتعلمهم كيف يفكرون تفكيراً سديداً فيما يعود عليهم بالخير . »

ويتكلم جريزولد Griswold A. W. عن الدراسات الحرة فيقول

« إنها ليست مجموعة من المصداقات أو المطلقات المنطقية أو كمية من المعرفة . وإنما هي دراسات اختيرت لتنمى القوى الروحية والعقلية للفرد إلى أقصى طاقاتها . إن الدراسات الحرة تهدف إلى أن تستغل إمكانيات الفرد لتحميل التبعات الملقاة على كاهله ، وليكون قادراً على تحمل مسئولية المواطنة . كان هذا هو معنى الدراسات الحرة أيام أفلاطون ، وهو نفسه معناها اليوم . »

والباحث في الكتب التي ظهرت حديثاً مهاجمة ما يدور في المدارس ، يجدها في حقيقتها إعادة صياغة للفلسفة الكلاسيكية ؛ ولم تتضمن هذه الكتب خلال صفحاتها مقتطفات من الكلاسيكية ، ولكن العين الفاحصة والعقل المفكر يستطيعان الإحساس بهذه الفلسفة واضحة في صفحات هذه الكتب .

وكان روبرت هتشنس، منذ حوالي ربع قرن، من أكثر المتمسكين بمبادئ الكلاسيكية، وقد حذا حذوه كثيرون من كبار رجال التربية والمفكرين ومنهم جريزولد وبارر Barr وهورنر هورنر وسميث Smith وليند ويستور. وهؤلاء قبلوا أفكار الكلاسيكية، وأسهم بعضهم في تعديل القليل من مبادئها دون المساس بجوهرها، وهم أيضاً الذين قادوا، في عنف، الحملة ضد مهاجمي الكلاسيكية.

وقد عرض كثيرون من الكتاب المعاصرين تعديلات فردية للفلسفة الكلاسيكية، دون المساس أيضاً بمبادئها الأساسية. وأما علماء الطبيعة فقد أعادوا صياغتها لتلائم نظرتهم الحديثة عن العالم، وكيف الاجتماعيون آراء الفلسفة الكلاسيكية لتتفق مع آرائهم. أما الفلسفة الكلاسيكية النقية فهي التي تؤكد العلوم الإنسانية، وهي التي تشتق من الفكرة الإنسانية.

وقد يعترض بعض رجال الدين المسيحي على الفكرة الإنسانية ويرون فيها خروجاً على الفكر المسيحية القائلة بأن القيم كلها ذات أصل مقدس. ولكن النظرة الكلاسيكية الحققة في التربية أقدم بكثير من المسيحية... يمكن تتبعها إلى الإغريق في قرون سابقة للميلاد.

التربية كتنمية للعقل

ترتكز النظرة الكلاسيكية على إقناع بأنه يوجد انفصال بين العالم المادى والعالم الروحى. والعقل جزء من العالم الروحى، ولا يمكن أن يفهم كنه العقل في ضوء الماديات، كما لا يمكننا أن ننزل بالعقل من العالم الروحى إلى المادى. والإنسان ثنائى في طبيعته، هو حيوان مفكر. على أن كونه (يفكر) أهم بكثير من كونه (حيواناً). وليكونه حيواناً، فمن الممكن أن يدرس تجريبياً، ولذلك فإن علوم الأحياء والنفس، والاجتماع، والأجناس تستطيع أن تلتقى أضواء على استجابات الإنسان الفسيولوجية وعلى بعض

مظاهر سلوكه الفردى والاجتماعى . ولكن ليس هذا هو المهم ، إنما المهم حقاً هو كون الإنسان كائناً مفكراً ، ولذلك فغير الطرق لمعرفة وفهمه تجىء من خلال العلوم الإنسانية .

ولعل الوظيفة الأساسية للتربية هى تنمية العقل ، فإن التفكير السديد ، والتفوق العقلى هما المصدر الذى يشع كل السلوك الطيب . وهما أساسيان لأفضل نمو للإنسان كإنسان ، ويقول هتشنس : إن وظيفة الإنسان كإنسان لا تتغير باختلاف السن أو اختلاف المجتمع ، طالما أنها تنبع من طبيعته كإنسان . ولا يتغير هدف النظام التعليمى باختلاف السن أو باختلاف المجتمع . إن الهدف هو رقى الإنسان كإنسان .

هذا الإقتران — بأن أساس التربية يجب أن يكون ثابتاً ودائماً — يكون جزءاً أساسياً فى الفلسفة الكلاسيكية . ونظراً لأن الإنسان لا يتغير ونظراً لأن الحق لا يتغير أيضاً ، فعلى التربية ألا تتغير ، إلا قليلاً جداً ، من عام لآخر أو من قرن لقرن . وإذا جاز للتربية أن تتغير فلا يكون ذلك رد فعل لتغير حياة الناس أو التغير التكنولوجى ، وإنما يحدث التغير لأن الحق قد تغير وأصبح أكثر ضماناً لدى الإنسان . وحتى هذا التغير يرتبط بالمضمون والمحتوى . لا بأهداف التربية وطرائقها .

وكان رأى الكلاسيكية فى إصرارها على أن الإنسان فى طبيعته الأساسية واحداً لا يتغير باختلاف الزمان أو المكان ، رأياً صعب على أفهام الناقدين ولم يقبلوه . فهذا الرأى ينكر كل ما نعرفه عن الفروق الفردية . ومع ذلك فإن هذا الرأى بالذات يؤمن به رجال يعرفون حق المعرفة أن الناس يختلفون فى الطول والوزن ونسبة الذكاء وفى المزاج... إلخ . وقد أعطانا هتشنس تفسيراً لهذا الموقف

وقد يناقش البعض قائلاً إن رأى الكلاسيكية (هذا يتجاهل الاختلافات بين الناس ، وأنا لا أتجاهل هذه الاختلافات : إننى أنكرها . أنا لا أنكر

حقيقة وجود فروق فردية ، ولكننى أنكر أنها أهم شيء يستند إليه نظام تعليمى ، لأنها ليست أهم شيء يجب أن نعرفه عن الإنسان .

ولست المعرفة هى الغاية النهائية للتربية ، ولكن معرفة الإنسان لنفسه ، ولماضيه وللعالم حوله وحصوله بنجاح على هذه المعرفة ، هو الجزء الأساسى فى العملية التربوية . هذه المعرفة ضرورية لاستمرار الثقافة ، واستمرار الثقافة ضرورى للمدينة . ولذلك فواجب المدارس أن تمد التلاميذ بالمعرفة التى تساعدهم على الإسهام فى المحافظة على تراثهم الثقافى واستمرار ثقافتهم . ولكن المعرفة لا تعنى فقط « المعرفة التجريبية » ، كما أن « المعرفة العلمية »

لا يمكن اعتبارها أسمى من غيرها من المعارف التى لم تأت عن طريق التجريب . إن المعرفة أو البصيرة التى يخرج بها الفرد من قراءته لقصيدة شعرية أو قطعة أدبية قد تكون أكثر أهمية من المعرفة التى يخرج بها من تجربة عملية . ويقتنع الكلاسيكيون بأن الإنسان الحديث ، وخاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية ، أصبح كثير الاعتماد على العلوم Science ، وأنه امتد بالطريقة العلمية إلى ميادين لا تناسبها . فالعلوم لا تفيدنا فى كثير عندما نتكلم عن القيم ، ولا تنفعنا فى تقرير ما هو الخير ، وما هو المهم . إن أى نظام تربوى لا يعترف بالقيم Values^(١) لا يعتبر تربوياً على الإطلاق .

وتلقى الكلاسيكية اهتماماً بالغاً على القيم ، وترى أنها يجب أن تقوم على ركائز أكثر ثباتاً ورسوخاً من مجرد تفضيلات تتغيرها جماعة ثقافية . ذلك لأن القيم ليست نسبية ، بمعنى أنها يمكن أن تتغير من مجتمع لآخر أو من سنة لآخرى ، كما يغير الناس عاداتهم وما يفضلونه . كما لا يمكن للتربية السليمة

(١) القيم هى مستويات لتوجيه السلوك . فالفرد يكتسب خبرات متعددة ، وهذه الخبرات تكون المستويات التى يسلك على أساسها ، وإذا انصفت هذه المستويات بمرونة تسمح للفرد بالتغير مع اضطرار نموه ، أى تسمح بخبرات ابتكارية ، فإن هذه المستويات تصبح حينئذ « قيماً » . وهذه القيم يجب أن تفسح المجال لتكوين قيم أخرى . ولذلك فالقيم متعددة تمتد من احتياجات الفرد ورغباته فى طرف إلى العدالة الاجتماعية فى الطرف الآخر . [الترجمان]

أن تؤسس على تشكك في موقفها إزاء القيم . وقول هتشنس ، النظام الذى ينكر وجود القيم إنما ينكر فاعلية التربية . وقد أظهرت الفوضى التربوية اليوم أربعة اتجاهات ، هى ما يطلق عليها أسماء النسبية والعلبية والتشككية والاتجاه ضد التربية العقلية . هذه الاتجاهات ولدت الفوضى في التربية التى سوف تؤدى إلى تفكك العالم الغربى ، .

وحسبما تنادى به الكلاسيكية، فإن دراسة القيم يجب أن تتم عن طريق التفكير الحر المبني على حق موثوق به مدعم بالمنطق . ويستطيع الفرد الراشد أن يقرر لنفسه ما هو الخير ، وما هو الجليل، وما هو العادل . وقبل أن يصل الفرد إلى المرحلة التى يستطيع فيها أن يقرر لنفسه هذا ، فعليه أن يتقبل أحكام من هم أعلم منه وأكثر حكمة . فنحن لا نتق بقدرة الطفل الصغير على إصدار أحكام قيمة ، ولكن علينا أن نتقبل أحكام الكبار ، فهم أنصح منه . ولكن على المدارس تقع مسؤولية مساعدة الطفل على النمو في طريق هذا النضج بتعليمه كيف يفكر بجرية تفكيراً سديداً ، يفكر في طبيعة الإنسان وفي مكانه في هذا العالم .

المنهج الكلاسيكي

والمنهج الكلاسيكي يجب أن يصمم بحيث يعمل على تنمية العقل وعلى نقل التراث الثقافى . ولذلك فتنظيم المنهج يجب أن يخضع للتسلسل المنطقى للمادة الدراسية ، فالحساب سابق للجبر لأنه أساس للعمليات الجبرية ؛ والتاريخ يأتى بعد تعلم القراءة ، لأن الواحد يقرأ ليعرف الماضى .

يجب إذن أن تقدم المواد الدراسية في صورة منظمة مرتبة ، فالتاريخ يدرس كتاريخ ويقدم بتتابعه الزمنى ، لا على أنه مجرد أرضية خلفية لازمة لفهم المشكلات الاجتماعية المعاصرة ، ولا يقدم أيضاً على هيئة سلسلة من «المشروعات» . بل لا يجب أن تقدم المعلومات في مواد متداخلة كما هو

الحال فيما يسمى « مناهج المحاور » ، أو فيما يدور في كليات الدراسات
الأكاديمية .

غير أن هتشنس وغيره ممن يجذون برناج « الكتب العظمى » ،
يقترحون منهجاً يختلف عن منهج الكلاسيكية الذي لا يبدو واضحاً كل
كل الوضوح لنا . فن المعروف أن سقراط لم يقسم منهجه إلى مواد دراسية .
كما أن الفكر اليوناني كله لم يعطنا مناهج مقسمة إلى مواد متفرقة ، أى أقساماً
للمعرفة . ولم يقترح سقراط استخدام « الكتب العظمى » ، لأن معظمها لم يكن
قد كتب بعد . وأغلب الظن أنه ما كان يستخدمها لو كانت موجودة فعلاً ،
لأنه كان يفضل طريقة « الحوار العظمى » ، ولم يجد من الضروري أن يقرأ
الكتاب قبل المناقشة . وبقيام جامعات العصور الوسطى ، بدأت المعرفة

(١) نظم هتشنس ، بالاشتراك مع بار ومورتغار آدلر وغيرهما عام ١٩٣٠ منهاجاً متكاملًا
لدراسة الجامعة وأطلق عليه اسم منهج « الكتب العظمى » ، Great Books ، وفقد في
كلية سان جون St. John في مدينة أنا بوليس في ولاية ماريلاند . وكلية سان جون كلية
صغيرة للدراسات الحرة وفيها يدرس الطلبة أعظم مائة كتاب ظهرت في الحضارة الغربية ، ومن
هذه الكتب : الإذاعة هومر ومؤلفات عبر القرون القديمة والوسطى والحديثة في مختلف فروع
المعرفة فهناك (النطق) لهيجل و (ورأس المال) لماركس و (الكهرباء والمغناطيسية)
لماكسويل . وفي رأى هتشنس أن الشاب الذي يستطيع أن يقرأ هذه الكتب قراءة ناقدة
 ويفهمها ، يستطيع أن يشق طريقه في علمنا . وفي رأى هتشنس وزملائه أن هذه الكتب
مازالت مفيدة وعظيمة . ودراسة هذه الكتب تنمي القوى العقلية والفكرية التي تجعل مسائل
الحياة العملية تحت سيطرة دارس هذه الكتب . على أن طلبة سان جون ، في سنى دراستهم
الأولية بالكيفية ، يدرسون إلى جانب الكتب العظمى مجموعة لغات قديمة وحديثة حتى يتمكنهم أن
يقرأوا الكتب بلغتها الأصلية ، وفي رأى الكلاسيكية أن دراسة اللغات القديمة فيها تدريب
للعقل . وتنضم الرنامع الدراسي في سان جون أن يجرى الطلبة نفس التجارب العلمية التي
أجراها العلماء القدامى مثل جاليليو وكيلر ونيوتن وبويل ولافاوازيه وهارفى .. الخ حتى
يستطيع الطلبة أن يحسوا بأنهم شاركوا هؤلاء العباقرة تجاربهم وبذلك يتغرب الطلبة المبكرة ،
لأنهم يشاركون العباقرة فيما فعلوه .

وتمثل الكتب العظمى تلك المقررات في كلية سان جون ، فيدرس الطلبة أيضا الرياضيات
والعلوم والأفان والموسيقى ، وعليهم أن يحضروا محاضرات عامة وحفلات موسيقية كل أسبوع
خلال العام الدراسي . وليس هناك مجال الاختيار في الدراسة فكل الطلبة يدرسون نفس
المناهج . [المرجع]

تتجزأ ، ولإزداد تجزؤها إلى درجة حدث بالمعضدين للكلاسيكية إلى القول بأن هذه التجزئة هي الأساس السليم للمنهج .

ومن مبادئ الكلاسيكية الأساسية أن الترية تنقسم إلى مستويات متميزة ، فالتعليم الابتدائي إعداد للدرسة الثانوية ، وهذه تعد للتلاميذ للجامعة والمعاهد العليا . وإذا سلمنا بأن بعض خريجي المدارس الثانوية لن يكملوا دراستهم ، فليس معنى ذلك أن نقلل مسئولية هذه المدارس في تجهيز التلاميذ للجامعة ، بل ويجب أن يكون التعليم في المدارس الثانوية مفيداً ومثمراً لهؤلاء التلاميذ الذين سيتهون دراستهم عند هذا الحد .

أما في المدرسة الابتدائية فيجب أن يركز الاهتمام على المهارة اللغوية والحساب ، فإن دراسة اللغة على جانب كبير من الأهمية لأنها واسطة التفكير وأساس الاتصال ، وهي خير الطرق لنقل الثقافة من جيل إلى آخر . ويجب على التلميذ أن يجيد النحو وقواعد اللغة حتى يستطيع أن يعبر عن نفسه بوضوح ودقة وبلاغة . ويجب عليه أن يجيد القراءة بسهولة وبفهم ذكي . ويجب عليه أن يعرف الكتب العظمى التي جاءت إلينا ، لأن هذه الكتب ترجعت إلى كثير من اللغات . ويجب أن يتعلم لغات أجنبية . ويأمل الكلاسيكون أن يتعلم التلميذ اللغتين الإغريقية واللاتينية حتى يستطيع أن يقرأ الكتب القديمة بلغاتها الأصلية دون الرجوع إلى التراجم .

وللرياضيات دور هام ، فهي تعالج العلاقات الموجودة بين الكميات أو الأحجام ، ولأنها أيضاً تمثل أسمى درجات نمو التفكير . وفي رأى البعض أن دراسة الرياضيات وقواعد اللغة تؤديان إلى التفكير السليم ، وأن هذا سوف ينتقل تأثيره إلى آفاق أخرى . وفي رأى الكلاسيكية أن الدلائل السيكولوجية التي قدمت أخيراً ضد التدريب الشكلى والتقليل من أهميته ، يجب أن نتجاهلها ، أو نرى أنها غير صالحة .

ويجب أن يستظهر التلاميذ ما هو ضرورى لنا كيد قدراتهم في مهارات القراءة والكتابة والحساب . ولكن في المستويات التعليمية العليا يقلل

الكلاسيكيون إهتمامهم بالحفظ والاستظهار ، ففي هذه المستويات يجب على الطلبة أن يتعلموا كيف يفكرون وكيف يفهمون . ولذلك فالتعليم في هذه المستويات يشتمل على دراسة المواد الكلاسيكية واستخدام الطريقة السقراطية لاستجلاء الأفكار وطريقة الحوار العظمى ، والتعبير كتابياً عن الأفكار . المهم أن يكون التأكيد في هذه المستويات على النشاط العقلي . ويتطلب الكلاسيكيون درجة عالية من التحصيل ، لأن حامل الدبلوم أو الشهادة يمثل مستوى من الدراسة ضرورى للإنسان المتعلمين . وتحدد المستويات الأهداف ، وهى أيضاً تثير الدوافع ، ولذلك فهذه المستويات يجب أن يحددها راشدون مسئولون ... لا أن يحددها الأطفال .

ونظراً لأن مناهج المدرسة الثانوية والتعليم العالى توضع على أساس الأفكار العظمى ، فإن أصحاب الكلاسيكية يهتمون بهذه الأفكار وبالكتب التى تحويها . وهم لا ينكرون أهمية الكتب المعاصرة ، ولكن جده الكتب فى حد ذاتها ليست مثيرة للاهتمام ، فهم يجدون فى الكتب المعاصرة قلة يمكن أن تنافس الكتب القديمة ، ولكن لا كتاب منها يبرز فى أهميته الكتابات العظمى التى انحدرت إلينا من الماضى .

فمثلاً هل يستطيع كاتب روائى معاصر أن ينافس بأعماله كتابات سفيركليس وشكسبير ، بحيث يمكن المسرحية المعاصرة أن تدخل المنهج المدرسى وكذلك الحال مع الشعراء ، فمن ينافس شعره شعر دانتي أو ملتون أو جوتة ؟ ولا بد أن تكون آراء الفيلسوف المعاصر جديدة بأن تزايل فلسفة أفلاطون وأرسطو وديكارت وبلوك وهيجل . إلخ . لا بد هشنا إذا عرفنا أن قلة من معاصرينا من يمكنهم أن يرتقوا إلى هذه الدرجة

وحيث أننا نعيش فى الحاضر أما هو إلا حبة قصيرة جداً فى تاريخ الإنسانية ، وحيث أن الكتب الكلاسيكية هى عصارة التفكير البشرى عبر القرون الطويلة ، فمن الطبيعى أن نقيم وجوهنا شطر الماضى لنكتسب الكلاسيكيات التى يجب أن تكون أساس تعليمنا . وهذه

الكلاسيكيات صالحة في كل زمان وتحت أى ظرف، لأن الإنسان في طبيعته الأساسية هو الإنسان في كل مكان وكل زمان .

وقد ينبرى البعض قائلًا إن التربية الكلاسيكية لا تناسب إلا ذوى الذكاء العالى ، وهناك نفر آخر يرى أن الكلاسيكيات قد تصلح لتكون أساساً مناسباً لتربية كل الأطفال . ويرد استرنجفلو بار قائلًا إن الكلاسيكيات يمكن أن تدرس على مستويات مختلفة ، فيدرسها الأغنياء ، ويدرسها الأذكياء .

والأفكار العظمى ، كالذهب والسمك ، توجد حيث تبحث عنها ؛ فهي لم تنتج بصور متتابعة خلال تاريخ الإنسان . قدمر على الإنسان حين من الدهر وصل فيه العقل البشرى إلى أوج قوته وتفوقه ، وهذه الفترة من تاريخ الإنسان يجب أن يتخذها المعاصرون المستوى الذى يتطلعون إليه .

وليس هناك إتفاق تام عن أكثر الفترات الكلاسيكية أهمية، ولو أن الغالبية ترى أن الفترة الآثنية من معركة المارثون سنة ٤٩٠ ق . م إلى وفاة أرسطو في ٣٢٢ ق . م هي أكثرها أهمية . فهي تفوق الفترة الرومانية ، لأن الفن والفلسفة الرومانية متأثران جداً بالفن والفلسفة الإغريقية . وهناك قلة ترى أن القرن الثالث عشر الميلادى هو أكثر القرون إزدهاراً ، وينطبق القول على عصر النهضة الايطالى وكذلك العصر الاليزابيثى فى إنجلترا . ويرى البعض أن القرن الثامن عشر جدير بأوفر قسط من الاهتمام . وجماعة تعيب على الغربيين إهتمامهم بالغرب فقط ، فإن الدراسين للشرق - حضارته يرون أن فترة حكم أسرة سونغ Sung فى الصين هي أكثر فترات التاريخ جدارة بإهتمامنا .

على أن ما هو جدير بالذكر أن الكتابات العظمى التى تمت فى عصور التاريخ المختلفة يجب أن تكون الأساس فى التعليم فى المرحلتين الثانوية والعالية . فالحاضر يفسر فى ضوء الماضى ، وما الحاضر الا خطوة

في تاريخ الإنسان، وهو بهذا ليس المحصلة النهائية، كما أنه ليس بمثابة لاسمى المستويات بما يجعل معرفة الماضي غير ضرورية.

يجب أن يكون هنالك تقسيم في المسئولية بين المدرسة وغيرها من المؤسسات. فالتربية، بمعنى الفترة التي يمضيها المتعلمون في التعليم الشكلي بالمدارس، ليست « الحياة »، كما يعتقد التقدميون. هذه التربية ما هي إلا جزء بسيط من حياة الطفل، ولذلك فلا يجب على المدرسة أن تحتكر وحدها مصادر خبرة الطفل. وما عمل المدارس إلا الاهتمام بناحية في حياة الطفل، هي إعدادة لمراحل دراسية أخرى وللحياة العقلية كراشد.

ويعمل التدريب العقلي على مساعدة الأفراد على التكيف الاجتماعي والنفسي، غير أن هذا التكيف ليس هو الهدف الأساس للتربية وإنما هو نتاج يثمر من تربية الفرد. فالتكيف كهدف للتربية، موضوع مشكوك في صحته وفي عدالته، إلا إذا كان التكيف يعني إتقاء سوء تكيف خطير كما هو الحال في الأمراض النفسية. أما التكيف بمعنى الانطواء مع جماعة الزملاء، فهو هدف غير عادل بالنسبة للتربية والمدنية، بل إن تحقيق هذا الهدف يعني نهاية المدنية. يجب أن تشمل التربية الصالحة على تعليم الفرد معرفة متى يحق له أن يختلف عن زملائه.

ليس تعلم المهارات الاجتماعية والتربوية جزءاً مناسباً في التعليم الشكلي في المدارس، فإن المناهج التي تتضمن هذه المهارات تسوء إلى المناشط العقلية، إذ أن هذه المهارات تنال شعبية وقبولا عند الأطفال مما يؤثر في غوهم العقلي. والطفل بحكم قصور سنه لا يستطيع أن يحكم حكماً صائباً عما سيفيده في مستقبل أيامه.

وقد يكون الكلاسيكي نفسه صائد سمك ممتاز، وراقصاً حاذقاً وشخصية محبوبة في مجتمعه، ولكنه مقتنع كل الإقناع بأن دراسة صيد السمك والرقص الإجتماعي ودراسة مادة كيف تكون محبوباً، لا يجب

مطلقاً أن تكون ضمن مواد المنهاج الدراسي ، وإنما يمكن للفرد تعلمها من والديه أو في بيئته الاجتماعية .

أما تعلم الهوايات بالصورة التي تتبع في المدارس اليوم ، فهي إعداد تافه للحياة ، لأن الهوايات تتجدد وتتطور بحيث يصبح ما درس في المدرسة من طراز قديم بال . ولعل خير طريق لإعداد الطفل لحسن إستغلال وقت فراغه هو تعليمه القراءة والاطلاع .

ويجب أن تنفصل التربية الأكاديمية عن التربية المهنية وغيرها من التخصصات التربوية ، حتى لا تلبس اعتبارات عملية ودينية تبعدها عن وظيفتها الحقيقية . ونظراً لأن الامتياز العقلي هو الخير الأكبر الذي تصدر منه كل أنواع الخير الأخرى ، فإن التربية الأكاديمية هي أحسن إعداد يمكن لأي مهنة ، لأن هذه التربية تنتج نمواً كاملاً للعقل . أما المهارات المهنية أو أسرار الصناعة والحرف ، فهذه يتعلمها الفرد عن طريق التلمذة الصناعية إما على يد صانع ماهر أو في مدرسة مهنية . وعلى الطالب أن يلتحق بالمدرسة المهنية بعد أن يحصل على قدر مناسب من التربية الأكاديمية .

ويستخدم الكلاسيكيون طرائق مختلفة في التدريس ، مثلاً طريقة المحاضرة ، التسميع ، المناقشة ، الطريقة السقراطية بأنواعها المختلفة ؛ وهذه الطرق افطية إلى حد بعيد . ويعطى إهتمام يسير للرحلات وما يسمى اليوم « بالوسائل السمعية — البصرية » . فمن المتوقع أن الطفل ينمي خبراته الحسية خارج المدرسة ، أما وقت المدرسة فيجب أن يكرس لتنمية الأفكار التي تعتمد في جزء منها على هذه الخبرات الحسية .

ويجب أن تشمل التربية الصالحة على نوع من الإمتحان يعمل على توسيع العقل ، وعلى إعطاء الطالب فرصة ليظهر قدرته على التفكير المنطقي ، وعلى التعبير عن آرائه بوضوح . وتفضل إمتحانات المقال والامتحانات

الشغوية ؛ ولا ينظر الكلاسيكيون إلى الإمتحانات الموضوعية بالتقدير ، ويقول أحدهم وهو جريزولد بأنه ما زال يفضل إمتحان المقال عن لعبة الحظ العقلية التي تصحح بالكهرباء .

كلية الدراسات الأكاديمية^(١)

يلمع الباحث نسمة من التشابه بين كلية الدراسات الأكاديمية والفكرة الكلاسيكية عن التعليم العالي . ولكن برنامج كلية اليوم يختلف اختلافاً ينفذ عن الفكرة الكلاسيكية ، فهو يتضمن في جزء يسير منه دراسة الآداب الكلاسيكية ، وهذه تقرأ في ترجماتها لأصولها الإغريقية واللاتينية ، فقد حلت اللغات الحديثة محل القديمة في المنهج ، ولكن تدريسها في كنهه لا يساعد الطلبة على إجادتها . وتهتم مواد العلوم بالاكتشافات الحديثة ، ولا تعطى التجارب القديمة في العلوم إلا النذر اليسير من الاهتمام . أما التاريخ فهو لا يدرس من خلال كتابات القدماء مثل ثيوكلیدس وبلوتارك ، بل يعتمد على الكتب الحديثة .

ووصل الأمر إلى درجة كبيرة من الخطورة بعد أن قدم الأستاذ اليوت Eliot مدير جامعة هارفارد ، قدم نظام الاختيار كمحاولة لتحطيم سيطرة المواد الكلاسيكية في المنهج . وبنظام الاختيار تمكن طلبة من التخرج في الجامعة حاملين شهادة جامعية دون أية دراية بالمواد الكلاسيكية ، وبعمرة بسيطة للتراث الثقافي الأمريكي .

وفي كليات الدراسات الأكاديمية أساتذة كثيرون ممن يهرسون مواد العلوم الطبيعية والاجتماعية ، وهؤلاء ينكرون بشدة تفوق أية مرحلة

(١) الدراسات الأكاديمية Liberal Arts في أساسها سبعة : النحو والنطق والبيان والحساب والهندسة واللوسيقى والفلك . أما اليوم فهي تشمل اللغات والعلوم والفلسفة والتاريخ — إلخ . Liberal Arts ترجمة من اللاتينية Arts Liberales ، وقد تضمنت معنى الحرية ، لا المواد التي تتصف بالحرية ولعلها اللازمة لتربية الفرد الحر . [المترجم]

من مراحل التاريخ البشرى على المرحلة الحاضرة ، فندية اليوم لا تقارن بأية مدينة أخرى . ومع ذلك فإن الماضى يأخذ نصيبه من العناية فى المواد الإنسانية (١) .

ومعروف أن المعرفة العلمية تتزايد على مر العصور ، فى حين أن البصيرة فى المواد الإنسانية لا تنال هذه الميزة ، وقد عبر برنتون Brinton عن هذه الفكرة فقال : لنفرض أن شاعراً وفيلسوفاً وإغريقين ظهروا اليوم بيننا ولم تزد معلوماتهما عما كانت عليه عند وفاتها ، ثم قابلا شاعراً وفيلسوفاً معاصرين ، ودار حديث بين الشاعر القديم والمعاصر عن الشعر ، والفيلسوف والفيلسوف عن الفلسفة ، اعتقد أنهم سوف يتفاهمون جيداً . ولكن لنفرض أن طالماً إغريقياً وليكن أرسطيدس دبت فيه الحياة ، وبدأ يتناقش مع عالم حديث ، اعتقد أن أرسطيدس سوف يبدأ يذاكر فى كتب العلوم ويدرس الرياضيات كما يفعل تلاميذ المدارس حتى يستطيع أن يبدأ حديثاً علمياً متواضعاً مع عالم اليوم .

هذا هو الفرق بين المعرفة المتزايدة (التراكمية) والمعرفة غير المتزايدة ، ولا يعنى هذا أن العلوم خير وأفيد من الفن والأدب والفلسفة ، ولكن المؤكد أن هناك فرقاً فى تراكم المعرفة .

وعلى بساطة هذه التفرقة فإن الكثيرين يجهلون بما يسبب سوء تفاهم بين العلوم والإنسانيات . ونجد أن معظم أساتذة اللغات القديمة والآداب واللغة الإنجليزية والفلسفة والتاريخ والفن والموسيقى ، نجدهم يؤمنون بأن العصور القديمة تمثل أعلى مراحل التفوق البشرى ، ويعتقدون أن أى نظام تربوى يعطى كل اهتمامه للحقبة المعاصرة هو فى حقيقته نظام لا تربوى .

(١) يتفق المتحدثون عن المواد الإنسانية Humanities على الأساسيات وهى : التاريخ والفن والأدب والفلسفة ، ويضاف إليها العلوم الطبيعية والاجتماعية . [المرجحان] (م ١ - نحو فلسفة التربية)

ونلاحظ أن مناهج علم النفس التي تدرس في المعاهد والكلية اليوم لا تهتم بالأفكار التي سبقت أبحاث وآراء فندت Wundt و James وفرويد Freud ؛ كما أن علم الأجناس والاجتماع نادراً ما يتناول الآراء التي يزيد عمرها عن مائة سنة . أما فيما يختص بعلوم الحياة والطبيعة فإن المعرفة المعاصرة أسمى بكثير من أية معارف أنبتتها عصور خالية ، بل إن النظريات القديمة ليست جديدة بأى اهتمام . وهذا اتجاه مغاير للكلاسيكية .

ونظراً لفشل الكثيرين من العلماء ورجال الفكر ، كما سبق أن بينا ، في التفرقة بين المعرفة التراكمية وغير التراكمية ، فإنهم افترضوا تفوقاً للعلوم على الإنسانيات ، ولذلك فهم ينبذون ما ورد إلينا من الماضي ... إنهم بذلك يرتمون في أحضان البراجماتية .

وترتكز الفكرة الكلاسيكية على مثالية ، وقد تتقبل هذه الاتجاه المواد الإنسانية ، ولكن العلوم الطبيعية والاجتماعية التي تحركها الفلسفة الواقعية Realism أو البراجماتية (الذرائع) Pragmatism تبعد عن الفكرة الكلاسيكية . ولذلك فإننا نجد كثيرين من علماء اليوم يتجاهلون المشكلات الفلسفية برمتها ، حتى أن بعض الجامعات الأمريكية تمنح درجة دكتوراه الفلسفة في الفيزياء وفي الكيمياء ، وفي علم الحياة ، بل وحتى في علم النفس أو علم الأجناس دون أن يدرس الطالب المشاكل الفلسفية ، بل إنه قد يحقرها .

وهذا اتجاه في حد ذاته معارض للكلاسيكية .

ومن بين حوالى ألف كلية منتشرة في ربوع الولايات المتحدة الأمريكية ، نجد قلة لا تزيد عن أربعين أو خمسين تحترم المواد الكلاسيكية ؛ لأن هذه الكليات تؤمن بأن هدفها تدريب العقل ، فإذا سمحت إدارات الكليات بأنشطة اجتماعية ، ومباريات رياضية ، وحفلات تمثيل ورقص ، فإنها تؤكد أن هذه الأنشطة خارج المنهاج المقرر على الطالب ، ولا تؤثر على

نجاح الطالب أو رسوبه ، أى أنها لا تقف على قدم المساواة مع النشاط العقلى الذى هو أساس الدراسة فى الكلية . ولا تقدم هذه الكليات دراسات مهنية ، رتنصح الطلبة أن يتدربوا مهنيأ بعد تخرجهم فيها ، ويكون ذلك فى معاهد أخرى .

ولهذه الكليات حل لإزاء الطلبة الذين لا تساعدهم إمكانياتهم العقلية على التحصيل فيها ، فهؤلاء الطلبة يمنعون من دخول الكليات أصلاً ، وإذا حدث ودخل أحدهم فينتز إداريو الكلية أول فرصة يرسب فيها ويفصلونه ؛ وبهذا تحافظ هذه الكليات على مستواها الأكاديمى الذى يمكنها من أداء وظيفتها الكلاسيكية .

على أن عدداً كبيراً من هذه الكليات (حوالى ٥٠ كلية) بدأ يحدد عن هذا الطريق عندما أتبعوا نظام الاختيار فى مواد الدراسة ، وأدخلوا مواد مهنية ، بل وأهتموا بالمعاصر أكثر من القديم ، وأكثروا اهتماماً بالنوع الاجتماعى وبالأساليب الترويجية . بل إن هذه الكليات المنخرقة عن الطريق الكلاسيكى قد سمحت لطلبة دون المستوى العقلى المطلوب بالنظام فى صفوفها ، ولذلك نجد أن معظم كليات الدراسات الأكاديمية اليوم لا تتطلب معدلات دراسية معينة أكثر من حصول الطالب على شهادة إتمام التعليم الثانوى . والمدارس الثانوية تكاد لا تبخل فى إعطاء هذه الشهادة لكل طالب أمضى سننى التعليم الثانوى فيها . بل إن بعض كليات الدراسات الأكاديمية وصلت إلى درجة أنها لا تمانع فى تكييف مستوى التعليم فيها بحيث يرضى الطلبة . وقد حدثت هذه التغيرات تحت وطأة ضغوط شديدة من أولياء الأمور والطلبة وكبار المسترلين الرسميين فى مجالس إدارات الكليات والجامعات ، ولذلك فقد جرت هذه الكليات فى طريق البراجماتية ، فأضافت مواد دراسية جديدة ، وأستبعدت مواد أخرى . ولبت هذه التغيرات تمت وفق فلسفة واضحة ، ولكن ما حدث أن الطلاء طالبوا استبعاد مواد كذا وكذا ، ولأن الدراسات العليا طلبت أن يدرس المتقدمون لها قبل تقديمهم مواد

كذا وكذا . وللخريجين في هذه الكليات مطالب أيضاً ، فإذا ألحوا على ضرورة تنظيم فريق اسكرة القدم بالسكية ، فيجب أن تلبي السكية مطالب جماهيرها ... على أن قلة قليلة من هذه الكليات استطاعت الصمود أمام هذه المطالب والتغيرات .

إذا حاول فرد البحث عن « فلسفة الدراسات الأكاديمية » ، في هذه الكليات ، فإن بحثه عديم الجدوى . فهذه الفلسفة لا وجود لها حتى في عقول كثيرين من عمداء هذه الكليات وأساتذتها ، وبالتالي طلبتها ومجالس إداراتها . حقاً تمنح هذه الكليات درجة الليسانس في الآداب . ولكن لكل كلية شروطها في منح هذه الدرجة الجامعية ، كما لا يمكن مقارنة هذه الدرجة بالدرجات التي تمنحها كليات المعلمين .

ومع ذلك فإن الفلسفة الكلاسيكية ما زالت تعيش في عقول البعض ، وقد لا تظهر هذه الفلسفة مجسمة في منهاج كلية ، ولكنها تظهر في ثنايا كتابات كثيرة تهاجم التربية والمربين . وتحارب هذه الفلسفة بشدة وعنف في كليات المعلمين وكليات الدراسات الأكاديمية ... حقاً إن لها سطوة وقوة وأثر باق . وليس من السهل أو الحكمة تجاهلها . وعلى المربين ، وعلى غيرهم ممن يريدون فهم مشاكلنا التعليمية ألا يتجاهلوا الكلاسيكية .

صحوة وتقدير

لاح للمربين ، منذ حوالي ربع قرن ، أن الكلاسيكية قد لفظت أنفاسها الأخيرة ، وأنها أصبحت في ذمة التاريخ . وقد درست الكلاسيكية ، منذ ذلك الوقت ، في مناهج فلسفة التربية بكليات المعلمين والجامعات على أنها « تربية تقليدية » ، وكانت تدرس على أنها نتاج تفكير كليي وعقول مظلمة ، أفكارها انحدرت من الأسلاف لتضل طريقها في نور النقدية . وقد أدى هذا إلى تعميق هوة الخلاف بين ذوى الفكر الكلاسيكيين وبين المربين . ومع

ارتفاع أوبة التقدمية في المدارس العامة ، كانت الكلاسيكية تنسحب
مهمزومه من الميدان .

ولكن انسحاب الكلاسيكية لم يعن موتها ، فإن قوتها الذاتية وصلابتها
ظلت تعمل حتى استطاعت في السنوات الأخيرة أن تسترد شيئاً من عافيتها
وقوتها لتبدأ صحوة جديدة . وخرجت من بعض كليات الدراسات الأكاديمية
صبيحات تنادى ببرامج الكتب العظمى ، و « التربية الأكاديمية الصحية »
بل إن بعض مناهج إعداد المعلمين الحديثة أعطت الكلاسيكية شحنات تقوية .
وأصبح كثيرون من الأمريكيين اليوم وقد بدموا يحسون بوجود الكلاسيكية
ويهمهم الاستماع إلى آرائها . موقف مغاير تماماً للموقف منذ ربع قرن . ومع
ذلك فلا بد أن نقرر أن للكلاسيكية حدودها ونواحي قصورها ، ولذلك
فإنها لن تستطيع أن تواجه مشكلات التربية في السنوات القادمة ، ما لم تعدل
في بعض مبادئها .

والمنهج الكلاسيكي قادر على إلقاء أضواء هادئة على المشاكل المعاصرة
ويستطيع أن يضع هذه المشاكل في مكانها في التاريخ من حيث أصولها
الماضية وتأثيراتها المستقبلية . لكن هذا المنهج يجب أن يحرم من الذين يدعون
العلم والمعرفة ، فهو لاء بجهدهم يهدمون فاعليته . مثل هذا المنهج جدير بأن
يدرسه رجال على علم ودراية أمثال فان دورين Van Doren وجلبرت هايت
Gilbert Highet وبرنتون Brinton ، وغيرهم ممن يستطيعون إلهاب العقل
وإثارة التخيل . أما إذا درس هذا المنهج أحد مدعى العلم ، أو مدرس ضعيف ،
فسوف تتحول الكلاسيكيات إلى مجموعات مفككة من المعلومات يحفظها
التلاميذ عن ظهر قلب ، دون فهم ما تعنيه .

وقد أعطانا جيبون Gibbon في مقال عن دراسة الأدب ، ثلاثة
أنواع من الحقائق . النوع الأول حقائق لا تثبت شيئاً خارج ذاتها ، والنوع
الثاني حقائق تصور خلقاً أو تفسر دافعاً ، والنوع الثالث حقائق لها القدرة
على التحكم في كل السلوك ، وتستطيع الكلاسيكيات ، إذا درست بعناية

أن تفهم الطالب النوعين الآخرين . أما إذا درست بإهمال ، فيكون التأكيد حينئذ على النوع الأول . وإذا حسب المدرسون أنفسهم دون تحيز أو تعصب ، فسوف يجد غالبيتهم أنهم درسوا النوع الأول فقط . وهذا هو السبب الذي من أجله لصقت النهم بالمنهج الكلاسيكي .

وقد لا يتطلب تدريس المنهج الكلاسيكي مدرسين أمثال فان دورين ، وغيره ، لكنه يلح في أن يكون المدرس على درجة عالية من الكفاءة إن الولايات المتحدة الأمريكية تحتاج إلى أكثر من ملبون مدرس ، ثم هي تمطيهم روائب قليلة ، ثم هي تحتقرهم لأنهم « أصحاب عقول مفكرة » ، مثل هذه الدولة ستجد صعوبة شاقة في العثور على المدرسين القادرين والصالحين لتدريس المنهج الكلاسيكي تحت هذه الظروف . وإذا درس منهج آخر غير المنهج الكلاسيكي فلن تظهر عدم كفاءة المدرسين بهذه الدرجة من الموضوع والحدة . وإذن فالموقف في صراحة يتلخص في أنه لا يمكن تنفيذ المنهج الكلاسيكي في المدارس الثانوية بهيئات التدريس الحالية ، الحاجة ملحة إلى مدرسين ممتنعين بهذا المنهج ومعدّين أحسن إعداد . واليوم الذي نجد فيه أعداداً كافية من هؤلاء المدرسين ، يوم يلوح لنا أنه بعيد جداً .

ومع أن الكلاسيكية لها صفات الفلسفة التربوية الصالحة ، إلا أنها لم تستطع أن تقف أمام تحديات القرن العشرين . فهي لم تستطع أن تعالج المشاكل التي نجمت عن التوسع في التعاليم وإلزاميته حتى نهاية المرحلة الثانوية . بل إنها تجاهلت نتائج أبحاث علم النفس عن الأطفال وعن التعلم ، وبذلك أبعدت نفسها عن مصدر للعلاقات أساسية وثمين وضروري للعملية التربوية . وأكثر من ذلك فلم تهتم بمشكلة الفروق الفردية إلا بالقدر الضئيل .

وقد استطاعت المدارس الثانوية ، منذ حوالي ثلاثين سنة أن تحل مشكلة الفروق الفردية بنفسها ، فلم تقبل بطيئ التعلم أو أنها فصلتهم عند ما رسبوا ، كما تفعل بعض الكليات اليوم . وثمة ميزة لدى أساتذة الجامعات فإن تحديد القبول بالكليات حدد المستويات بالجمعية ومعنى ذلك التقليل من الاختلافات

الفردية . نجد أن درجة الذكاء في المدرسة الثانوية اليوم تتراوح بين ٧٠ و ١٥٠ أو أكثر ، وإن نجد هذا المدى الكبير بين طلبة الكليات الجامعية . وقد ينهزى بعض ذوى الفكر فيرفضون موضوع الذكاء كلية ولا يؤمنون به ، ولكنهم لا يستطيعون أن يغيروا الحقيقة القائلة بأن بين الطلبة أذكاء جداً وأغبياء جداً . هذه الفروق موجودة في الطبيعة كما توجد غيرها من القدرات البشرية ، وهي ليست من اختراع علماء النفس ولا المربين ، وليست جزءاً من ممتلكاتهم كما يحلو للبعض من النقاد أن يعتقد . وقد تعمل الظروف الثقافية على التحكم في مستويات الأطفال في التحصيل ولكنها لا تستطيع أن تقلل من مدى الفروق في قدراتهم ، بمعنى أن الطفل الذكي إذا وضع في بيئة صالحة فسوف تتحسن قدراته أكثر مما تتحسن قدرات من هو أقل ذكاء منه ، وبذلك تنسج شقة الفروق الفردية .

ويلج العالم على أن المنهج الكلاسيكي صالح لكل فرد ، ولكنه لم يمر بخبرة تدريس مراد كلاسيكية لوالد أ. بنت في سن ١٦ سنة ومع ذلك فلا يزيد عمر كل منهما العقلي عن ١١ أو ١٢ سنة . ولذلك فإن مدرس المدرسة الثانوية اليوم يرفض رأى مثل هذا العالم وحكمه مستنداً إلى أن خبرته أصدق وحكمه أصح لأنه مشتق من واقع عمله .

على أن غالبية ذوى الفكر والعلماء من يؤمنون بالكلاسيكية يصرون على مرفقهم ويستندون إلى رأى بار الذى يقول إن كل فرد قادر على الانتفاع بما في الكتب الكلاسيكية ، وأن الطفل الذى يظهر لنا على أنه غبي في أول الأمر يستطيع فيما بعد أن يفهم ما في هذه الكتب . مثل هذا الطفل لم يكن غيباً ولكنه لم يجد ما يحفز على التعلم ، غير أن الأغبياء من الطلبة لا يقبلون في كلية سان جون ولا في غيرها من الكليات الكبيرة ذات السمعة الطيبة . ومع ذلك فإن بعض أساتذة هذه الكليات يعتبرون بعض تلاميذهم أغبياء ذلك لأنهم في واقع الأمر لم يقابلوا طفلاً غيباً بمعنى الكلمة ، واحداً من هؤلاء الأطفال الذين يتعلمون في المدارس الحكومية الثانوية .

ويكون التلاميذ ذوى الذكاء المنخفض حوالى ثلث عدد كل التلاميذ. وهؤلاء مواطنون من حقهم أن ينالوا قسطاً من التربية يفيدهم . ويجب أن يربى هؤلاء لبيكونوا مواطنين صالحين، وأفراداً سعداء قادرين على الإسهام وخدمة مجتمعاتهم . وسوف يصبح كثير منهم آباء وأمهات، وسوف يتوجهون إلى صناديق الانتخابات . هؤلاء الأفراد لديهم القدرة على تعلم مهارات مفيدة ويستطيعون تعلم القراءة والكتابة . ويمكن أن تتحسن قدرتهم على التفكير إذا أعدت لهم تربية صالحة ، ولكنهم لا يستطيعون إستيعاب الكتب الكلاسيكية وإن يشوفهم قراءة كتاب مثل الفردوس المفقود . ولكنهم يستطيعون أن يفهموا قصة رحلات جولفر ، وهملت ، إذا وجدوا من يساعدهم على تفهمها ويبدل مجهوداً كبيراً فى هذا السبيل . ولكن هؤلاء الطلبة لم يستطيعوا إدراك المغزى الحقيقى من وراء هذه القصة أو تلك ، وبهذا المعنى فإن هذه (الكتب العظمى) إذ درست لهؤلاء الطلبة وبهذه الطريقة فإنها تفقد قيمتها ككتب عظمى .

ويتصدى نفر قائمين إن بعض السائقين والسباكين وعمال البناء قد يشتركون فى مناقشات عن (الكتب العظمى) وهذا دليل على أن (الرجل العادى) يستمتع بالأدب الكلاسيكى . ولكن نقطة الضعف فى هذا القول أن هذا النفر يتجاهلون الحقيقة القائلة بأن بين هؤلاء العمال أفراداً أذكياء ولديهم إمكانيات عقلية كبيرة . ولكن هؤلاء الأذكياء لا يمثلون نسبة كبيرة ولا يمثلون أيضاً (الفرد المتوسط) فهم أفراد متميزون أوجدتهم الظروف فى مهن غير عقلية .

ويلوح لنا أنه فى الإمكان أن يستفيد نصف عدد التلاميذ الموجودين بالمدرسة الثانوية من دراسة المنهج الكلاسيكى إذا درس بطريقة سليمة صحيحة ، ولكن يكاد يكون من المؤكد أن هذا المنهج لا يصلح لـ شكل التلاميذ . ونظراً لأن من مسئولية المدارس أن توقف تيار اللاعقلية فى المجتمع ، فيلوح أن الشعب الأمريكى لن يقبل تجاهل المدارس للنمو العقلى تجاهلاً كاملاً

فقد أصبحت المدارس في آلاف المدن والقرى مراكز للبيئة ، ففيها تناح فرص كثيرة لنشاط أهل القرية من الصغار والكبار على السواء . وهذه المراكز تتحمل بعض مسئوليات كانت فيما مضى تقع على كاهل البيت . والظاهر ، أن هذا ما يريده الناس .

لكن الفلسفة الكلاسيكية لا تستطيع بصورتها القديمة أن تلبي ما يريده الناس ، ولما كانت إذا مدت يدها إلى المربين وقبلت نوعاً من التغيير فإنها تبدأ صفحة جديدة من التعاون توشك أن تبزغ . يجب أن تلح فلسفتنا في التربية على الاهتمام بالعقل ، والاهتمام أيضاً بما يريده الشعب . ولكن على هذه الفلسفة أن توضح في صراحة أنها سوف تتبع المنطق وتعترف به وأنها سوف تغير ، إذا اقتضى الأمر ، من رغبات الجماهير .

يجب أن تسمح هذه الفلسفة بترتيبات مختلفة باختلاف إمكانات التلاميذ ، وأن كثرة كثيرة من هؤلاء التلاميذ يجب أن يتعلموا الكلاسيكيات ، على أن تدرس بطرائق أكثر فاعلية عما هو متبع حتى تؤدي ثمارها ناضجة شبيهة ، وحتى تظل أفكارها باقية طوال حياة المعلمين . ويقول هتشنس : لكي نهلك التقاليد الغريبة في التفكير المستقل ، فلا يتطلب الأمر أن نحرق الكتب ، وما علينا إلا أن نتركها دون قراءة لعدة أجيال .

إننا نندفع إلى هذا الطريق ، ما لم تصالح التربية .

التدريس كفن

للفلسفة الكلاسيكية تضمينات في إعداد المعلمين ، وهذه التضمينات كانت الأساس لمناحي النقد التي وجهها العلماء الأكاديميون في الجامعات إلى كليات ومعاهد المعلمين . ونظراً لأن التربية تهتم بالعقل ، ونظراً لأن العقل ليس جزءاً من العالم المادى وبهذا لا يخضع لطائفة البحث

العلمي ، لذلك فإن عملية التعلم وطبيعة المتعلم كسكان مفكر لا يمكن إخضاعهما للبحث العلمي . أما هذه الأشياء التي تقاس مثل نسب الذكاء ومستويات النمو ومنحنيات التعلم ، فهي ذات أهمية ضئيلة لأنها تهتم بالأشكال لا بالجوهر . في رأى الكلاسيكيين أن الفروق الفردية ، كما يقيسها علماء النفس ، إنما هي قياسات لأمور تافهة ؛ لأن الإنسان في طبيعته الأساسية هو الإنسان في كل زمان ومكان .

ويجب على المدرس أن يكون شخصاً دارساً ، وكلما ازدادت دراسته زادت صلاحيته كمدرس . إن الوقت الذي يكرس في معاهد وكليات إعداد المعلمين لتدريس المواد التربوية إنما هو وقت ضائع ، وجدير أن يكرس هذا الوقت لتحسين مستوى مدرسي المستقبل في المواد التي سيدرسونها . وجدير بالذكر أن مدرسي الجامعات ومدرسي بعض المدارس الخاصة لم يدرسوا مثل هذه المواد التربوية ومع ذلك فإنهم ، في رأى الكلاسيكيين ، أكثر صلاحية من مدرسي المدارس الحكومية العامة ، ولا يجد الكلاسيكيون ضرورة في إعطاء أدلة تؤيد رأيهم .

ولا يعني هذا أن التدريس الجيد غير مهم لأن المنادين بهذه الرأي هم أنفسهم مدرسون ممتازون ، ولكنهم مقتنعون بأن التدريس الجيد لا يتأتى من دراسة مناهج في علم النفس التعليمي ومبادئ التربية والطرق الخاصة . . الخ ، بل إنه من الخطورة وعدم الصلاحية بمكان أن نحاول تطبيق الأساليب العلمية في العملية التربوية .

هذه الفكرة قد عبر عنها جلبرت هايت في مقدمة كتابه « فن التعليم » ، يقول :

« أنا أعتقد أن التعليم فن وليس علماً . ويلوح لي أنه من الأمور الخطيرة تطبيق أهداف وطرائق العلم على الكائنات البشرية كأفراد ... إن العلاقات بين الأفراد لا تقوم فقط على صلات نصفها بأنها « علمية » . والتعليم يتضمن

إنفعالات وقيماً بشرية، وهذه لا يمكن إخضاعها تحت طائلة البحث العلمى .
إذا نشأنا طفلاً بأسلوب علمى فقد ينمو شيطاناً يستدر منا الشفقة . والتعليم
ليس عملية من تلك العمليات التى تحدث داخل المعامل ؛ إنه كصورة ترسم أو
قطعة موسيقية تؤلف ، أو كحديقة تزرع أو كأنك تكتب خطاباً لصديق .
إنك تضع قلبك فى العملية وترى أنك لا تستطيع إتمامها بطريقة روتينية
مرسومة لأنك بهذا ستفسد عملك وتلاميذك ونفسك .

ولا يتجاهل هاتين موضوع الفروق الفردية فى القدرة على التعلم وفى
الدوافع وفى الاهتمام ، بل إنه يعطى الفروق الفردية أهمية كبيرة ، ويقترح
طرقاً تتماشى مع حقيقة وجود هذه الفروق بين التلاميذ . ولكنه ينكر الأساس
العلمى كأسلوب لدراسة هذه الفروق .

على أن نبذ الأساس العلمى فى إعداد المعلمين لا يستبعد بالتبعية كل مواد
(التربية) . ولو أن الكثيرين ممن يؤمنون بالفلسفة الكلاسيكية يميلون
إلى احتقار كل مواد التربية ، على أن هذا الاحتقار لا يتماشى مع حقيقة
الفلسفة الكلاسيكية التى تؤمن بأن على المدرس أن يفهم بعمق وجدية
تاريخ التعليم فى مجتمعه الذى هو جزء منه . كما أن على المدرس أن يفهم
العلاقة بين المدرسة الابتدائية والثانوية ثم بين المدرسة الثانوية والدراسة
العليا ؛ وهذه الموضوعات تدرس ضمن مناهج مبادئ التربية . . ويجب
على المدرس أن يفكر فى معنى وأغراض التربية ، وأن يكون لنفسه فلسفة
تربوية ؛ كما يجب عليه أن يفهم فلسفة التربية التى تدير المدرسة أو المعهد
الذى يدرس فيه .

وإذا اضطر أساتذة الجامعة الأكاديميون إلى الاعتراف بأهمية معرفة
المدرس لهذه الفلسفات والصلات بين مراحل التعليم ، فإنهم يرون أن تدرس
هذه الموضوعات كجزء من الدراسات الأكاديمية ، لا كمواد تربوية قائمة
بذاتها . فالتاريخ التربوى مثلاً يدرس كجزء من التاريخ العام كما هو الحال فى

تدريس تاريخ الأديان . وتدرس فلسفة التربية كجزء من الفلسفة العامة ،
لاعلى أنها مادة لها كيائها الخاص . ويوافق بعض المربين على أن هذا حل
سليم ، ولكنهم يشيرون إلى إهمال المؤرخين للتاريخ عن المدارس على الرغم
من اهتمامهم ببقية المؤسسات البشرية . وعلى الرغم من أن غالبية عظماء
الفلاسفة قد أولوا مشاكل التعليم جانباً مهماً في فلسفاتهم ، إلا أن المعاصرين
من أساتذة الفلسفة اعتادوا حذف هذا الجزء الهام من المناهج التي يدرسونها
في الفلسفة . وعندما يطلب من أساتذة تاريخ الفلسفة أن يحاضروا في
محاضراتهم للطلبة عن المشكلات التربوية ، يجيبون أنهم لا يعرفون شيئاً عن
التربية ولا يهتمون بأمورها ومشاكلها وعجيب أن يصدر هذا القول
من أساتذة يكرسون حياتهم لتربية طلبة الجامعة .

على أن القول بأن التعليم فن أكثر من كونه علماً لايعنى إغفال تعليم
طريق التدريس ، فالفنان يتعلم طريقه غالباً من فنان آخر يلعب دور المدرس .
ويستطيع العبقري أن يتسكر طرائقه الخاصة ، ولكننا لانستطيع أن نتوقع
أن يكون أكثر من مليون مدرس أمريكي عباقرة .

وإذا كان هایت قد كرس جزءاً كبيراً من وقته الثمين لكتابه الممتاز
«فن التعليم» فهو يوافق فيه على أن هذا الفن يمكن ، ولو في جزء بسيط منه أن
تتعلمه من الكتب . على أن كتاب هایت يختلف عن الكتب التي تدرس
في مناهج التربية ، فهو لايشتمل على إحصاءات أو مقتطفات من البحوث ،
ولمّا يناقش صفات وقدرات المدرس الصالح ، ويقدم بعض عظماء المدرسين
الذين اشتهروا في العالم الغربي . وكتاب هایت يصف بالتفصيل طرق التدريس
المختلفة ، ويهتم بالفروق بين التلاميذ . وقد يكون هذا الكتاب خير نموذج
معاصر لأي عالم في التعليم .

وقد انتشر كتاب هایت انتشاراً واسعاً ، ولكن يلوح أن الغالبية
العظمى من قرائه كانوا من مدرسي المدارس العامة ، ويلوح أنه لم يعرف

عند كبار المربين . ولذلك فعندما عبر هابيت عن آرائه في الفلسفة التربوية في إحدى المجلات العامة، اتهمه المربون بأنه دخيل لا يعلم شيئا عن التربية . هذه الحادثة تعطينا أبلغ مثال للشقة العميقة التي توجد اليوم بين عالم المفكرين وعالم المربين .

ويمكن لهذه الشقة أن تلتئم . ولكن جدير بنا قبل محاولة التقريب هذه ، أن نتيح الفرصة لاستعراض آراء (التربية الحديثة) .